مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (6)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (6) 2015

الرؤية المادية بين البوذية و الماركسية

الدكتور محمد فرحة*

(تاريخ الإيداع 4 / 8 / 2015. قبل للنشر في 12 / 11 / 2015)

□ ملخّص □

هل تستطيع البوذية فعلاً أن تنافس الماركسية في نزعتها المادية؟هذا ما سوف نركّز عليه في هذا البحث من خلال إجراء دراسة مقارنة بين البوذية والماركسية فيما يتعلّق بنظرة كلّ واحدة منهما إلى قضية المادة وما يتفرّع عنها من قضايا أخرى مثل: العالم، الله، الدين، الوعي والديالكتيك...إلخ. لذلك، سنحاول بادئ ذي بدء البرهان على أنَّ البوذية لم تكن ــ كما يعتقد ــ مدرسة فلسفيّة روحانية، بل كانت مدرسة واقعية ديناميكية مادية. وإن استطعنا الوصول إلى هذه النقطة، ستكون البوذية في الفضاء نفسه مع الماركسية، هذا إن لم نعدّهما مدرستين تكمل إحداهما الأخرى، آخذين بعين الاعتبار بعض الاختلافات سواء في المنهجية من جهة أوالتغير في السّياق الزمكاني و الاجتماعي من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: المادية، البوذية، الماركسية، الوجودية، الروحانية.

* **أستاذ مساعد – قسم الفلسفة، كلية الآداب و العلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.**

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (37) العدد (6)2015
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (37) No. (6) 2015

The Material Insight Between Buddhism and Marxism

Dr. Mohammad Farha*

(Received 4 / 8 / 2015. Accepted 12 / 11 / 2015)

□ ABSTRACT □

Could Buddhism really comptete Marxism in its material tendency? This would be the point of focus of this piece of research through a comparative study between Buddhism and Marxism in the light of the viewpoint of each of them toward materialism and such relevant issues as the cosmos, God, religion, consciousness, dialectics….etc. therefore, we shall endeavor basically to prove that Buddhism was not---- as is believed ---- a philosophical spiritual school, quite contrastively, it was a realistically dynamic materialistic school. If we could strike this point, Buddhism would be in the same domain as Marxism. This is so if we did not consider them two cumulative school. Needless to say that a few discrepancies whether relating to methodological or to the change of the spacio-temporal or social change have been closely scrutinized.

Keywords: materialism, Buddhism, Marxism, Existentialism, Spiritualism.

***Associate Professor of Contemporary Philosophical Doctrines, Department of Philosophy, Faculty of Arts and Humanities, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

هل استطاع بوذا أن يرد على ماركس؟!هل تستطيع البوذية فعلاً أن تنافس الماركسية في نزعتها المادية؟هذا ما سوف نركّز عليه في هذا البحث من خلال إجراء دراسة مقارنة بين البوذية والماركسية فيما يتعلّق بنظرة كلّ واحدة منهما إلى قضية المادة وما يتفرّع عنها من قضايا أخرى مثل: العالم، الله، الدين، الوعي والديالكتيك...إلخ. لذلك، سنحاول بادئ ذي بدء البرهان على أنَّ البوذية لم تكن ــ كما يعتقد ــ مدرسة فلسفيّة روحانية، بل كانت مدرسة واقعية ديناميكية مادية. وإن استطعنا الوصول إلى هذه النقطة، ستكون البوذية في الفضاء نفسه مع الماركسية، هذا إن لم نعدّهما مدرستين تكمل إحداهما الأخرى، آخذين بعين الاعتبار بعض الاختلافات سواء في المنهجية من جهة أوالتغير في السّياق الزمكاني و الاجتماعي من جهة أخرى.

أهمية البحث وأهدافه:

أهمية البحث:

تكمن أهمية هذا البحث، في إظهار التشابهات العديدة بين البوذية و الماركسية، فيما يتعلق بمفهوم المادة و دلالاتها و تجسداتها، على الرغم من المسافة الزمنية الطويلة التي تفصل بين المدرستين.

منهجية البحث:

من الصعب جداً أن نحدد منهجاً معيناً للبحث و نلتزم به، و عليه سنعتمد في بحثنا هذا على مناهج عدة بحسب ما يقتضيه البحث ذاته. سنعتمد المنهج التحليلي الذي يساعدنا في تحليل نصوص و مفاهيم المدرستين البوذية والماركسية، و كذلك، سنستخدم المنهج المقارن لنبين أوجه التشابه و تجلية المشتركات العامة بينهما.

رابعاً– طبيعة العالم:

مما لا شكّ فيه، أن الفلسفة المادية آمنت بأنَّ العالم ذو طبيعة مادية، وهو حقيقة موضوعيّة وموجودة بشكل مستقل عن الإنسان ووعيه ورغبته وإحساسه، فلا تتغيّر ولا تتأثّر بإدراكه لها. على عكس تماماً، ما ذهب إليه باركلي، عندما رأى أنَّ العالم المادي لا يوجد إلا بمقدار ما يدركه العقل. ولكن، على أيّة حال، فالحقيقة التي لا يمكننا تجاهلها هي: أنَّ هذا العالم بطبيعته المادية موجود بذاته، وهو حقيقة محيطة بنا لا يمكننا رفضها. خصوصاً، إذا أخذنا بعين الاعتبار، اكتشافات العلم الحديث فيما يتعلّق ببنية المادّة، بدءاً من اكتشاف الإلكترون والبروتون و ما تلا ذلك من الاكتشافات التي تؤكّد وجود المادة. ما نريد قوله هنا، إنَّ الفلسفة لم يعد بمقدورها تجاهل المادة، فقد أصبحت الحقيقة الموضوعية التي أكدها العلم الحديث، وستبقى موضوع اهتمام الدراسات العلمية في سبيل اكتشاف صفات جديدة لها.

ولكن، إذا كانت المادية والعلم في العصر الحديث أكّدا أنَّ المادة هي الحقيقة الموضوعية في هذا العالم، فإن السؤال هنا هو، كيف نظرت البوذية منذ القرن السادس ق.م إلى العالم؟ كيف أجابت عن قضايا الأنطولوجيا؟ ما طبيعة التفسير الذي قدمته؟ أكان تفسيراً مثالياً أم روحياً أم وقعياً ديناميكياً مادياً؟ هذا ما سوف نحاول توضيحه الآن.

لم تؤمن البوذية بالعلّة الغائية للعالم، بل على العكس، آمنت بوجود العناصر المادية الأربعة: الماء، والهواء، والتراب، والنار. هذه العناصر بدورها تشكّل كتلة العالم بكليته. فالطبيعة بما فيها من أشياء، مركبة من هذه العناصر الأربعة.

يقول Sharma: "**لقد اعترفت البوذية بالعناصر المادّية الأربعة: الماء والهواء والتراب والنار، فالعالم المادّي وأجسادنا مركّبة من هذه العناصر** "[1].فهذه العناصر الأربعة هي التي شكّلت مفهوم المادة عند البوذية.ولم تتوقّف عند ذلك، بل ذهبت إلى وصف طبيعة هذه المادّةوبنيتها، بأنّها متغيّرة، وعابرة، ولحظيّة، يقول بوذا في هذا السّياق: " **كلّ الأشياء عرضة للتغيير، يجب أن نعلم أنَ كلّ ما هو موجود، ناتج من أسباب وشروط، وهو في كلّ متغيّر ولحظي في كلّ جانب من جوانبه** "[2]. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه الواقعية الديناميكية عند البوذية أو بعبارة أخرى "مذهب اللحظية".

يتألّف مذهب اللحظية عند البوذية من ثلاثة جوانب، هي:

1) لحظية في تكوين الأشياء.
2) لحظية في وجود الأشياء.
3) لحظية في الطبيعة الذاتية للأشياء.

فيما يخصّ الجانب الأوّل، تفسّره البوذية على النحو الآتي: " **تتكوّن الأشياء من خلال اتّحاد الأسباب مع شروطها ولا تمتلك مفهوم (نومين) مستقل عنها، وعندما يتفكّك هذا الاتّحاد يحل محلّه الفساد، ولكن تبقى العناصر الأربعة تنتظر اتّحاداً آخر... وهكذا دواليك**"[3]. هذا ما يمكن أن نسمّيه اللحظية في تكوين الأشياء.

أمّا الجانب الثاني، اللحظية في وجود الأشياء، فيمكن تفسيره من خلال الصّيغة الآتية:

الموجود في صيرورة، فالموجود في اللحظة الماضية قد عاش، لكنه لا يعيش الآن، لن يعيش غداً. الموجود في اللحظة المستقبلية، سوف يعيش. أمّا الموجود في اللحظة الراهنة، فهو يعيش الآن، ولكنه لم يعش ولن يعيش.

باختصار: الموجود في تغير وتطوّر مستمرين، ولا يمكن أن يبقى على حاله في لحظتين مختلفتين من حياته، هذا ما يسمّى بلحظية وجود الأشياء.

أما الجانب الثالث للحظية، فيتمتّع بنوع من الصّعوبة في الفهم، وذلك بسبب إدراك أنَّ الكائن الإنساني سيموت في لحظة ما، وهذه قضية سهلة الفهم، لكن، ليس من السهل أن يفهم كيف أنّه في تغيّر مستمر، في الوقت الذي هو فيه حي. كيف لهذا أن يكون ممكناً؟!

يجيب بوذا عن هذا السؤال بالقول: "**إنّه ممكن، لأنّ كلّ ما يوجد هو لحظي**"[4].

ممّا تقدّم، نستطيع أن نجمل القول بأنَّ مذهب اللحظية يعني أنّ كلّ شيء يتغيّر من لحظة إلى لحظة، فإن لحظة ما تتقدّم وتمنح دائماً المكان للحظة أخرى، وإن كان كل شيء يدوم للحظة واحدة فقط، وإذا كانت الطبيعة اللحظية للأشياء صادقة، هذا يعني أنَّ هناك تغيّراً مفهومياً أيضاً للعالم ككل، بشكل دائم ومستمر. وهذا ما تعتقد به البوذية، بالنسبة إليها، إن ترى أن الشيء الحقيقي الوحيد هو أنَّ العالم في تغيّر وتدفق مستمرين، لا شيء ثابتاً فيه، وكلّ ما يبدو ثابتاً هو نسبي، وهو لحظة إدراكيّة متغيّرة.

ولكن، يجب ألا نذهب بعيداً ونعتقد أن مذهب اللحظية، عند البوذية، قد يعني أو يقود إلى ما يسمّى بالعدمية Nihilism، وإنّما كلّ ما يعنيه هو أنَّ هناك تغيرات إدراكية مفاهيمية، تظهر، من لحظة إلى أخرى، في هذا العالم الظاهري. فمن الواضح أنَّ مذهب اللحظية، يعني التّغير الإدراكي في عملية إدراك العالم، في طبيعة الأشياء

[1] -Sharma , a critical survey of Indian philosophy, MotilalBanarsidass Publishers, Delhi,1987. P.146.
[2]-Buddha, Quoted from, Systems of Buddhistics thought, by: Sogenyamakami, university of Calcutta, 1912, p.9.
[3] -Ambedkar, The Buddha, And His Dhamma,Siddhathachabukswar, 1956, p.240.
[4]- Ibid, p.156.

الموضوعيّة، وفي كلّ الحالات الذهنية.وحقيقة، إنَّ طبيعة العالم المادية التي تتغيّر بذاتها، وبشكل دائم، دون توقّف، تقدم طريقاً جديداً للحظات جديدة، و تسمح بظهور أشياء وحالات ذهنية جديدة، وهذا ما يمكن أن نسمّيه بالواقعية الديناميكية عند البوذية.

خامساً– المفهوم الماركسي للمادة:

تؤمن الماركسية ــ كما هو الحال عند البوذيةــ بالوجود الموضوعي للعالم المادي الذي هو في تغيّر دائم، كما تؤمن بأنَّ المادة التي انبثق منها هذا العالم، هي أيضاً في حركة وتغيّر دائمينكما هو معروف، فإنَّ مفهوم المادة عند الماركسية، مفهوم واسع جداً، وشامل، وعام، وجوهري، يتضمّن جميع الأشياء في هذا العالم. بمعنى آخر، نستطيع القول: إنَّ هذا المفهوم هو الموضوعية ذاتها، أي أنَّ جميع الأشياء موجودة بشكل مستقل عن أي وعي بشري.

بالنسبة للماركسية، نستطيع فهم الوجود المادي، من خلال الأشياء الممتدة من النّجوم إلى الذرات. وفي الحقيقة، إنَّ هذه الأشياء مترابطة يتفاعل بعضها مع بعض، وهذا التفاعل المتبادل هو الذي يشكّل الحركة.وإذا كانت المادة، تواجهنا بوصفها شيئاً معطى، غير محدث وغير قابل للزوال، فهذا يعني أنَّ الحركة غير محدثة،وغير قابلة للزوال أيضاً. ولذلك، ومما تقدّم نستطيع القول: إنّه من غير الممكن رفض هذه النتيجة باللحظة التي تمَّ الاعتراف " **بأنَّ العالم هو نظام مترابط ومتفاعل مع الأجساد** "[5]. هذه الحركة هي حلقة دائرية، تتحرّك عليها المادة، وتستكمل بشكل كامل مدارها في فترات الزمان. إنّها الحلقة الدائرية التي يتجلى فيها الزمان في أعلى تطوّره، وهب التي يقوم فيها كلّ شكل من أشكال وجود المادّة، سواء أكان شّمساً، أم حيواناً، أو نباتاً أو مركّباً كيميائيّاً...إلخ. هو وجود عابر، وليس هناك من أشياء أبدية، بل هناك أبدية التغيَر، أبدية الحركة. يقول إنجليز: " **الحركة شكل من أشكال وجود المادة، ولا يمكن أن توجد من دونها**"[6].

لا شكّ في أنَّ القضية الأساسية للعلوم، في يومنا هذا، هي المادة في حركتها وتغيرها، إن الأشكال المختلفة والمتنوّعة للمادة ذاتها، يمكن معرفتها فقط من خلال الحركة. فلو لم يكن هناك أجساد تتحرّك وتخضع للتغيّر، فلن يكون هناك شيء تتكلّم عنه، ولهذا، فإنَّ طبيعة الأشياء في الحركة والتّغيّر ناتجة من أشكال الحركة والتّغيّر ذاتها.

إنَّ كلّاً من الحركة والتّغيّر، هو عابر، ولحظي عند كلّ من البوذية والماركسية، اللتين تريان الحركة والتّغيّر،في سلسلة من الأسباب والنتائج، و هناك نظام سببي، تظهر ضمن حدوده كلّ من الحركة والمادة في العالم. لذلك، ومما تقدّم، نستطيع القول: إن الفلسفة البوذية كانت منذ القرن السادس قبل الميلاد، تتمتّع بوجهة نظر علمية حديثة تماماً، كما هو الحال عند الماركسية في فهمها لطبيعة المادّة. فالحقيقة،عند البوذية، هي واقعية ديناميكية. وهذا ما أكدته الماركسية من بعدها. لقد سيطرت خلال القرن التاسع عشر ثلاثة قوانين لم يستطع أحد أن يتحداها، ألا وهي: قانون المادة، وقانون الكتلة، وقانون الطاقة، لقد كانت هذه القوانين بمنزلة الأوراق الرابحة في وجه المثالية. ومن خلالها تمَّ فهم العالم بوصفه ميداناً ممتلئاً بالذرات الأبدية التي تتألّف من إلكترون وبروتون هما المسؤولان عن الطّاقة الكهربائية، وبهذه الاكتشافات تمَّ التّخلي، وإلى الأبد، عن مفهوم الكتلة غير المتحوّلة. والآن إذا وضعنا اكتشافات القرن التاسع عشر، فيما يتعلّق بطبيعة المادّة وتحوّلاتها، أمام مفهوم البوذية للمادة، ألا نستطيع القول إنَّ هناك تقارباً كبيراً بينهما؟

[5]**Engels، Dialectics of Nature. Trans. By: Clemens Dutt, (New york International Publishers), 1940, P.92.**

[6]**- Ibid. p.93.**

يقول بوذا: "**علينا أن نُفْهِم العالم، على أنّه تدفق من الظّواهر، لا شيء ثابت، الكلّ في صيرورة دائمة، هناك تدفّق مستمر للأشياء وللحالات الذّهنية، وعليه فإن كلّ شيء عابر، كلّ شيء لحظيّ**"[7].

وفي السّياق نفسه نجد انجليز يقول: "**إنَّ أعظم فكرة نفهم العالم من خلالها، ليست تلك الفكرة التي نرى العالم مركّباً من الأشياء، بل بوصفه مركّباً من العمليات..... يوجد الوعي في الدائرة التي يوجد فيها كلّ أشكال وجود المادة العابرة والمتغيّرة، ولا شيء أبدياً فيها إلا أبدية تغيرها** "[8].انطلاقاً من قول كلّ من بوذا وإنجليز، نلاحظ، مدى التّشابه المذهل بين كلّ من البوذية والماركسية، فيما يتعلّق بالطبيعة المتغيّرة التي تتمتّع بها الحقيقة المادية.

سادساً– المادّية والإيمان بالله:

لقد أعاد ماركس كما هو معروف، بناء الحياة الاجتماعية على قاعدة الإلحاد وعدم الإيمان، إذ كما سبق وذكرنا، آنفاً، آمنت الماركسية بالوجود الأبدي للمادة . دونما خالق لها، فقد نشأت وتطوّرت من دون أي تدخل أية قوّة ميتافيزيقية، لذلك، نستطيع القول إنَّ الماركسية، بوصفها نظرية مادّية ديالكتيكية، هي نظرية مرتبطة بشكل كامل مع النظرية الإلحادية، النظرية المادية، التي لا تترك مجالاً للحديث عن أيّ خلق إلهي للعالم. والسّؤال هنا هو الآتي: إذا كان هذا هو موقف الماركسية، فيما يتعلّق بخلق العالم، فما موقف البوذية من ذلك؟!

لكن، قبل الخوض في موقف البوذية من الخلق، لا بدَّ لنا هنا من أن نبيّن موقف العلم منه، فلقد جزم العلم، وبشكل ثابت وقاطع، بأن لا شيء في الطبيعة ينتج من عدم، فقانون حفظ المادة هو ذاته، يعبر عن هذه الفكرة. ووفقاً لهذا القانون، فإن المادّة لم تخلق أبداً، ولم تأت إلى الوجود. لقد كانت وما زالت، وستبقى موجودة، إذن، العالم أبدي، وليس مخلوقاًلموجود مفارق. فالطبيعة الحقيقية للحقيقة هي مادية.

من جانب آخر، نرى أنه عند البوذية، لا يعد سّؤال وجود الله أو عدم وجوده سؤالاً جوهرياً، وكذلك السؤال إن كان الله هو الذي خلق العالم لا يعد السؤال الأساسي، بينما السؤال الرئيس هو: هل خلق الله شيئاً من لا شيء؟! أم خلق شيئاً من شيء؟!

إنَّ إجابة البوذية عن هذا السّؤال هي:

"إنّه من المستحيل أن تعتقد أنَّ شيئاً ما قد خُلق من شيء. إذا كان ما يسمّى الله قد خلق شيئاً من شيء، فهذا الذي خُلِقَ منه الشيء الجديد، يجب أن يكون موجوداً قبل أن يخلق أي شيء، وعليه، فإنَّ الله لا يمكن أن يعدّ خالق هذا الشيء، لأنَّ هذا الشيء كان موجوداً قبله. فإذا كان الشيء قد خلق من قبل شيء آخر، قبل أن يخلق الله أي شيء عندئذ، لا يمكن أن يقال عن الله هو الخالق أو العلّة الأولى" [9].ممّا تقدّم، فإنَّ البوذية، كما هو الحال عند الماركسية، قد أكّدت على الوجود الدائم والأبدي للمادّة. ومن وجهة نظرها، فإنَّ المادة أبديّة، غير مخلوقة، إنّها العلّة الداخلية لكلّ شيء موجود.

وإذا كانت المادة هي العلّة الأولى، والأساس الجوهري لكلّ الأشياء، لم يعد بالإمكان الحديث عن سؤال وجود الله أو أية قوة ميتافيزيقية أخرى موجودة أم لا.

أما القول بأن الله خلق العالم من لا شيء فهو عند البوذية، وهم محض، فالمادّة ثابتة، ولم تأت أبداً إلى الوجود، إنّها موجودة دائماً، وستبقى. وهذا ما أكّدته نظريات العلوم الحديثة.

---

[7]- The Buddha, And His Dhamma, PP.596.
[8]- Dialectics of Nature. P54.
[9]- The Buddha, And His Dhamma, P255.

لم تقف البوذية في الطرف المقابل للماركسية، وإنّما بوذا نفسه، وقف ضد كهنة الفيدا، وقال إنّهم يستغلون الناس ويستعبدونهم. لقد رفض كلّ أنواع الطقوس والعبادات. إنّه ليس صحيحاً أنَّ بوذا بقي صامتاً عن قضية وجود الله، بل على العكس تماماً، لقد وعّى النّاس على عدم ضياع الوقت في البحث في قضية وجود الله، وعليهم بناء حياتهم الاجتماعية من خلال أفعالهم، فليس ثمّة وجود مقدّس، مفارق، موجود من أجل تخليصهم من المعاناة سواء أكانت المعاناة اجتماعية، أم اقتصادية أم سياسية، بل عليهم الاعتماد على أفعالهم فقط، فلقد أكّد بوذا على قانون الكارما، الذي جعل مصير الإنسان بيده، فهو خلاص ذاته، وذلك من خلال جهده وتفكيره وعمله.

مما تقدّم، نستطيع القول إنَّ كلاً من البوذية والماركسية متفقتان على أنَّ الجهد الإنساني هو الجوهري والأساسي في بناء الحياة الاجتماعية، فمركز الفلسفتين البوذية والماركسية ليس العلاقة بين الإنسان والله، وإنّما علاقة الإنسان مع الإنسان على هذه الأرض. إنَّ هدف فلسفتهما الرئيس هو القول إنَّ جهد الإنسان يجب أن يوجّه باتجاه عمل بنَّاء وسلوك جيّد في المجتمع. و على ذلك تتوقف سعادة الجميع.

سابعاً– الوحدة والسببية:

كما رأينا سابقاً، إنَّ كلّاً من بوذا وماركس، ومن خلال انتقادهما ورفضهما لوجود الله، كانا يعبّران بطريقة أو بأخرى، عن إيمانهما العميق بالإنسان والطبيعة. فكلّ من الإنسان والطبيعة يرتبطان بعضهما ببعض، وبشكل غير قابل للانفصال. وإن دلَّ هذا على شيء، فإنّما يدلّ على إيمانهما بقوانين الطبيعة التي تشكّل ما يسمّى بنظام السلسة أو الرابطة السببية.

لقد اعتقد فويرباخ بوجود القانون الموضوعي في الطبيعة، كما اعتقد بسببيته الموضوعية. هذا القانون متّصل مع الحقيقة الموضوعية التي تقرّ بوجود العالم الخارجي، والأشياء، والأجساد، كلّها منعكسة في عقولنا، وهذا ما سميَّ لاحقاً بالنظرية المادية للعالم[10].

أمّا انجليز، فلم يرفض بدوره الحقيقة الموضوعية التي آمن بها فويروباخ، بل على العكس تماماً، فقد استطاع بمساعدة الأخير، أن يؤكّد وجهة النّظر الديالكتيكية لقانون السبب والنتيجة. هذا القانون هو التّصوّر الكلّي للفعل وردة الفعل الذي يتبادل، من خلاله، السبب والنتيجة أمكنتهما بشكل دائم وثابت، فما هو سبب الآن، يمكن أن يكون لاحقاً نتيجة، والعكس بالعكس.

وانطلاقاً من هذا القانون، فإن كلّ ما هو موجود في هذا العالم، بمنظور الماركسية، ليس إلّا التفاعل الموضوعي الطبيعي بين الظواهر، وهذا ما أطلقت عليه الماركسية اسم "قوانين الطبيعة أو ضرورات الطبيعة". ولما كان الإنسان –كما سبق أن أشرنا– جزءاً من الطبيعة، اقتضى ذلك، أن ليس كائناً حراً، وليس مستقلاً عن قوانينها، ولا يمكن أن يوجد بمعزل عن القوانين المادية، أو يسمّى بـ(ضرورات الطبيعة).

أمّا فيما يتعلّق بالبوذية، فقد وجدنا، من خلال قراءتنا لأدبياتها، أنها ترى فيما يخص الطبيعة "أنَّ لا شيء مستقلاً بذاته..... كلّ شيء يمتلك شروط تغيره" [11] إذن، وانطلاقاً من هذا القول، فكلّ الأشياء في العالم متوقّفة على العلاقة الضرورية بين السبب والنتيجة. هذه السلسلة السببية، هي الحاضرة في العالم، في كل مكان، وقد أطلقت عليها البوذية اسم " PaticcaSamuppad". تؤكّد هذه النظرية، أنَّ شيئاً ما يكون سبباً لنتيجة ما، وهذه النتيجة بدورها

[10]-Lenin, Materialism and Empirio – Criticism, trans. By: Abraham Finebrg, Progress Publishers, 1972, p167.

[11]Kyabgon-The Essence of Buddhism: An Introduction to Its Philosophy and Practice, Shambhala Dragon Editions, 2001, P187.

ستصبح سبباً لنتيجة أخرى، وهكذا دواليك. إذن، هناك سلسلة من الأسباب والنتائج، وهذا يوضّح إلى أي مدى كانت البوذية تؤمن بنظرية السببية في الطبيعة، فهي تؤمن بأن الطبيعة محكومة بقوانين، ولا شيء موجوداً بالمصادفة في هذا العالم. هناك نظام طبيعي في هذا العالم الطبيعي، لا شيء عند البوذية يسمّى بالمطلق. يقول بوذا: " **إذا كان المقصود بالمطلق، هو ذلك الشيء الخارج عن كلّ ما يُعرف بموجبه، ووجوده لا يمكن أن يعرفه أي عقل، إذن، كيف لنا أن نعلم أنّه موجود؟!** "[12]. وبناء على ما سبق يمكننا القول إنّه، فيما يخص النظرية السببية– يتعين أنَّ هناك تقارباً شديداً بين البوذية و الماركسية، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه اسم " **المادية الديناميكية**"، فكل منهما تؤمن بأنَّ الطبيعة هي الحقيقة الموضوعية الأبدية في الزمان والمكان.

من جانب آخر، هناك صفة مشتركة أخرى بين الماركسية والبوذية، ألا وهي "وحدة العالم". فالعالم في نظرهما "وحدة". وقد برهنا على ذلك من خلال النظرية السببية والمادية التي تم مناقشتها آنفاً. إنَّ هذا الكون الواسع،عندهما، متعدّد العوالم، لكن، هذه العوالم جميعها مؤلّفة من الطبيعة المادية، ولذلك، فإنَّ هذه الوحدة تشدد على أنَّ جميع الأشياء والظواهر، والعمليات الذهنية، مترابطة بعضها مع بعض، وهذا الترابط هو الذي يشكّل عالماً متحداً. وهذا ممكن فقط، اعتماداً على النظرية السببية، لأن كل الأشياء متحدة بسلسلة من الأسباب والنتائج. يقول إنجليز "العالم وحدة، بسبب طبيعته المادية"[13]، ويقول بوذا في هذا الخصوص: "**يكون للعالم معنى، عندما يُدرك بكليته ووحدته**"[14].

ثامناً– الديالكتيكية والديناميكية:

بسبب من اتصاف الفلسفة الماركسية بالمادية الديالكتيكية، والمدرسة البوذية بالواقعية الديناميكية، سنحاول هنا تحليل بعض تفصيلات قوانين الديالكتيكية والديناميكية في سياق تطبيقاتها ودلالاتها.

تقدّم الديناميكية الواقعية نفسها، بوصفها مذهب "التغير والسببية الكلية"، أمّا المادية الديالكتيكية، فتقدّم ذاتها بوصفها مذهب "التّطوّر والاتصال الكلّي".

1. **التغير والسببية الكلية:**

كما أشرنا سابقاً، بأنّه حتى تستطيع البوذية تفسير استمرارية العالم بغياب الجوهر الدائم –أو ما يسمّى بالله– أعلن بوذا قانون السببية، وجعل منه القاعدة الأساسية لهذه الاستمرارية. لذلك هناك الكثير من يرى أنَّ هذا القانون يعد الإنجاز الأهم في تاريخ التفكير الفلسفي في الهند.

لقد سبقت الإشارة إلى أنَّ الوجود عند البوذية هو مجرد "عبور– انتقال"،فجميع الأشياء تخضع للتغيير، والنشأة، والتطوّر والانحلال. يقول بوذا: "**لنعلم أن كل ما هو موجود، يظهر من شروط وأسباب، وهو غير ثابت في كلّ لحظة وفي كل ظهور... كل شيء له سبب، يجب أن يفسد... ،كل شيء يولد، وينمو، ويتطوّر، ويتضمّن بذاته الضرورة الكامنة لفساده**"[15].

مما تقدّم، نستطيع القول: إنَّ الوجود الظاهري –عند البوذية– في تغير مستمر، وكل جزء منه محدد مسبقاً بأسبابه و شروط وجوده. لكن، لم تحاول البوذية الوصول إلى السبب الأوّل للوجود كما فعل أرسطو، لأنّها تؤمن بأنّ هذا العالم المادي في تغير وصيرورة وحدوث دائم. هذا يعني أنَّ كلّ ارتباط سببي ناتج من خلال أشياء موجودة فعلاً،

[12]-Ibid. Pp.198-192.
[13]-what is Dialectical Materialism. P67.
[14]-The Essence of Buddhism.p.192.
[15]-MajghimNikaya. The Middle – Length Discourses, Trans. By: Bhikku Bodhi, Boston: Wisdom Publication, 1995, ii. 23.

ويعني ذلك أن الميزة الأكثر أهمية في الارتباط السببي، هي موضعية طبيعته. إن التغير السببي –عند البوذية– لا ينظر إليه بوصفه تتابعاً ميكانيكياً من الحركات، "وإنّما بوصفه حالة واحدة تعمل بذاتها، وتتحول إلى حالة أخرى بنبضات لا تتوقّف"[16].

وهكذا، فإنَّ البوذية تؤمن بلحظية السببية و انتقاليتها، بمعنى، إنَّ حالة ما، من السبب و النتيجة تنقل طاقتها السببية إلى حالة جديدة أخرى. إنَّ العلاقات السببية، هي من نوع البذور التي تنمو لتصبح شجرة، إذ كلّ منهما ضروري للآخر. هذا يعني أنَّ التّطوّر المستمر ليس مجرد إعادة وتكرار، إنّما هو ولادة وحدث جديد. وعليه، فإنَّ الطبيعة، بوصفها واقعية ديناميكية، هي تغير متواصل، ونمو لا متناه، متّصلة باتصال لا انفكاك عنه مع سلسلة فولاذية من السببية. إن عجلات النظام الكوني تدور من دون صانع، و من دون بداية معلومة، وهكذا يستمر في الوجود من خلال طبيعة تسلسل السبب والنتيجة. يقول بوذا: "**إنَّ هذا العالم الكبير المليء بالحياة والحركة، وفي حالة حدوث وتغير وبقاء دائم، يمتلك القانون في مركزه... ليس هناك من وجود لله في هذا العالم**"[17].

إذن، في الديناميكية البوذية، هناك القانون العامّ في التغير،وسببيته الكلية هي أنَّ حدوث العالم هو موضوعي، وليس متوقفاً على عقل كوني. أمّا الصفة المهمة الملازمة لقانون السببية فهي الكلية. معنى ذلك أنَّ هذا القانون هو كلّي، وليس متعلّقاً بالعالم المادي فقط، بل ينسحب أيضاً على الإنسان... إلخ. فليس هناك ثمّة ظاهرة غير خاضعة لهذا القانون. يقول بوذا: "**على الرغم من أن القانون ذاته هو كلّي ولا يقبل الاستثناءات،فإنّه يعتمد في عمله على الشروط**"[18].

وهكذا، فإنَّ قانون السببية عند البوذية، قانون كلّي وموضوعي، وليس مجرّد تكرار لطبيعته، بل إنّه شيء جديد بشكله وصفاته. هذه هي الفكرة الأساسية لمفهوم الواقعية الديناميكية عند البوذية.

2. **تطوّر مفهوم الاتصال الكلي:**

لقد بيّنا من قبل ، أن الماركسية ترى أن كلّ شيء في هذا العالم يتطور: الأعداد اللامتناهية للأشياء، والنظام الشمسي، والأرض وما عليها، جميعها نتاج التطوّر المستمر للمادة، حتّى الإنسان نفسه ظهر من خلال عملية تطوّر العالم المادي وارتقائه. ولذلك، حتّى نكتسب معرفة الأشياء، والظاهر في هذا العالم، فمن الضروري قبل كلّ شيء أن ندرس التّغير والتطوّر الدائمين. فلكي نعرف شيئاً ما حقاً، يجب علينا أن نختبره في سياق تطوره وتغيره. إنَّ عملية تطوّر العالم لا تنتهي، فهي عبارة عن موت القديم وولادة للجديد، يقول ماركس: "**إنَّ التّطوّر هو الجديد الذي يأتي بشكل دائم، ليتقدّم على القديم. لا أحد يستطيع أن يفلت من هذه العملية**"[19].

وهذا الجديد، يتجسد في جميع مجالات الوجود وميادينه. فالجديد في التطوّر الاجتماعي هو المسيطر، وذلك لأنَّ الأساس والقاعدة الاجتماعية في نمو وتطوّر دائمين. إنَّ سيطرة الجديد، على أية حال، لا تعني أن انتصاره يأتي بذاته، وبشكل أوتوماتيكي. هذا الانتصار يجب أن يحضر له، يجب أن يُحارب من أجله. إنَّ النشاط الواعي للبشر، والطبقات المتقدّمة، جميعها تؤدي دوراً مهماً في انتصار الجديد على القديم في الحياة الاجتماعية.

[16] -Ibid. pii.
[17]-Buddha: Quotedin a Short History of Buddhism, by: George Allen and Unwin, London, 1980,P375.
[18]-Ibib. P376.
[19]-Marxist philosophy: A Study Guide for Revolutionaries in the age of electronics, www. Science society. Org. pp. 38-39.

مما تقدّم، نستطيع القول: إنَّ العالم المادي، ليس متطوّراً فقط، وإنما هو متّصل، وكلّي،ومتكامل. كل ما هو في تطوّر دائم، هو ليس كذلك بذاته، إنّما هو كذلك لاتّصاله مع أشياء وظواهر أخرى، وكلّ شيء من هذه الأشياء، أو كلّ ظاهرة من هذه الظواهر، تمارس فعلاً على شيء أو على ظاهرة أخرى، إذن، هي في عملية تأثير متبادل.

والآن، أليس باستطاعتنا القول: إنَّ نظرية الاتصال الكلي عند الماركسية مشابهة لمذهب السببية الكلية عند البوذية؟!

إنَّ كلّ ما تحدّثت به الماركسية عن مذهب التّطوّر الذي يفهم من خلال فكرة التّغير والاتصال الكلي، ليس إلّا النظام السببي في العالم، النظام الذي من خلاله تغدو الأشياء كلها متبادلة الاعتمادية. هذا ما يمكن أن نسميه "فلسفة الوجود الكلي" التي تبرهن على أنَّ الأشياء كلها حقيقية في هذا العالم، وتتمتّع بانسجام، بمعنى أنّها في ارتباطات متكاملة.

لقد قدّمت العلوم الحديثة، من جانب آخر، معلومات هائلة تبرهن، من خلالها فكرة الاتصال أو الارتباط المتبادل بين الظواهر والأشياء من جهة وبين السببية في الطبيعة من جهة ثانية. فعلى سبيل المثال: هناك بعض الجزئيات الأولية، يتفاعل بعضها مع بعض، فتشكّل الذرات. هذه الذرات تدخل في اتصال مع ذرات أخرى لتشكل جزئياً. وهذا الأخير، يدخل في ارتباط مع جزئيات أخرى، فتشكّل أجساماً صغيرة. وبالتالي،وإذا اختبرنا هذه السلسلة من العلاقات السببية، من منظور الماركسية، سوف نلاحظ أنّها تتألّف من الظواهر المترابطة بعضها مع بعض. فكل سبب ونتيجة، يحتاجان للظهور، ليس بشكل منعزل، وإنّما عبر اتصالهما بالظواهر التي نتجت من خلالهما. فالسبب والنتيجة، ليسا قطبين متعارضين، إنهما رابطتان في سلسلة مركّبة ومعقدة من الأشياء والظواهر المتفاعلة. وعليه فإنّ "ما يوجد في هذا العالم هو الاتصال الكلي، المتجسّد في حقيقة أنَّ الأسباب والنتائج تغير الأمكنة باستمرار"[20].

مما تقدّم، نستطيع القول: إنَّ الاتصال الكلّي والسببية الكلّية بين الأشياء والظواهر يشكلان الصفة الجوهرية لعالم المادة، ويشكلان السمة الأكثر أهمية عند كلّ من البوذية والماركسية.

تاسعاً– القوانين الأساسية للديالكتيك:

لقد استنتجنا مما سبق أنَّ الطبيعة –عند الماركسية– هي القانون الحاكم، وهناك اتصال جوهري بين الأشياء والظواهر في العالم، ويستطيع المرء أن يلاحظ أنَّ الظواهر الطبيعية متفاعل بعضها مع بعض. وأنَّ العالم يعتمد على مثل هذا التّنوّع في العلاقات والروابط، وهي، بدورها، لا نهائية في الطبيعة.

من جهة ثانية، ليست كلّ هذه العلاقات متساوية الأهمية، فهناك علاقات عرضية ومتغيرة وهناك علاقات ثابتة وأساسية وعلاقات حاكمة ومسيطرة. لذلك، فإن العلاقات الثابتة و الأساسية، من بين هذه العلاقات، التي نستطيع تسميتها بالقانون، يقول لينين: " **إنَّ القانون هو العلاقات الأساسية** "[21]. كذلك، يوضّح القانون، شيئاً من الصفات الكلية، شيئاً عاماً في الأشياء والظواهر، وهذا ما عبّر عنه إنجليز بقوله: "**إنَّ شكل الصيغة في الطبيعة هو القانون** ". وهكذا، فإنَّ القانون يقدّم لنا ما نسميه "بالكلّي"، وفي هذه الحالة، فإنّنا لا نتحدّث هنا عن العرضية، بل إننا عندما نتحدّث عن القانون، بالمعنى الفلسفي، نعني بذلك القانون الموضوعي المتضمّن في الطبيعة، وهو المتحكّم بتطوّر الطبيعة. ولأن الأشياء والظواهر توجد بشكل موضوعي، وهي مترابط بعضها مع بعض، فإن هذا يعني أنَّ الموضوعية هي الصفة الأساسية للقانون، تماماً كما أشرنا سابقاً في قانون السببية عند البوذية.

[20]- What is Dialectical Materialism? Pp 133-135.
[21]-Ibid, p153.

من جانب آخر، تُعدُّ قوانين الطبيعة موضوعية، وذلك بسبب عدم اعتمادها على إرادة الإنسان ووعيه، فالقوانين الاجتماعية، كذلك، قوانين موضوعية، فالبشر لا يستطيعون خلق أنفسهم، ولذلك رفضت الماركسية المفهوم المثالي للقانون،– أي تصوّر القانون موجود بشكل مسبق في العقل قبل مواجهته بالواقع. بل على خلاف ذلك، رأت أن القانون يعكس القانون كلّاً من العلاقات الكلية، والضرورية، والثابتة نسبياً بين الأشياء والظواهر في العالم الموجود. وعند الماركسية هناك ثلاثة أنواع من القوانين، هي:

1) القوانين المحدّدة. 2) القوانين العامّة. 3) القوانين الكليّة.

فإذا أسّست القوانين علاقات أساسية بين بعض الظواهر في جزء من الطبيعة، فإنَّ هذه القوانين تدعى بالقوانين المحددة، وهي قوانين الحياة، والفيزياء، وبعض قوانين العلوم الأخرى. أمّا إذا أسست لعلاقات أساسية بين كلّ ظواهر الطبيعة وفي كلّ المجتمعات، فتدعى حينئذ بالقوانين العامّة، مثل قانون الجاذبية. أمّا إذا كشفت عن علاقات أساسية في كلّ من الظواهر والمجتمعات وحتّى الفكر، فتسمّى قوانين كلية، ومثل هذه القوانين تُدرسها الفلسفة الماركسية، وتشمل ما يأتي:

1) قانون الانتقال من التّغيرات الكمية إلى التغيرات الكيفية.

2) قانون وحدة وصراع الأضداد.

3) قانون نفي النفي.

إنَّ انتقال التّغيرات من الحالة الكمّية إلى الحالة الكيفية، هو الانتقال الكلّي لتطوّر العالم المادي. وإنَّ قوانين الجدل المادي تفتح الطريق لفهم الحركة والتّطوّر الكليين في العالم المادي، وتظهر مصادرها والقوى المتضمنة في التناقضات الداخلية. هذه القوانين، ليست سوى السمات الثلاث للاتّصال الكلّي المتطوّر، وهو مذهب قريب من مذهب التغيير والسببية عند البوذية. فإذا كان العالم يتطوّر من خلال التّغيرات الكمّية والكيفية، ومن خلال وحدة وصراع الأضداد، ونفي النفي، فهذا لا يتناقض مع مذهب التّغير والسببية الكلّية عند البوذية، بما يعنيه التّطوّر الدائم والمستمر، وتحوّل الأشياء الموجودة إلى أشياء جديدة، مفترضة صوراً وأشكالاً مختلفة في الوقت ذاته. من هنا، يمكن القول: إنّ ماهية قوانين الجدل يمكن إيجادها في مبدأ التطابق أو الهوية المتبادلة عند البوذية.

عاشراً– مبدأ التطابق المتبادل:

لقد ناقشت البوذية هذا المبدأ، وأدركت من خلاله وجود أضداد في العالم، وكذلك في التفكير البشري. ولكنَّ، تركيب هذه الأضداد، هو القاعدة الأساسية لما يسمّى بالتطابق المتبادل. فعلى سبيل المثال: إذا تقدّم حزب ما بأفكاره الخاصّة، وأصّر حزب آخر على أفكاره أيضاً، فإن الانفصال سيكون النتيجة الطبيعية، و لذلك، فإن أحدهما عليه أن يضع جانباً، للحظة ما ويطابقها مع أفكار الحزب الآخر، وهذا ما يعرف بالتأليف المتبادل بين موقفين متعارضين. وهكذا، فإنَّ كلّاً من الحزبين سيجدان نفسيهما متّحدين بشكل كامل. هذا ما يسمى "بعملية الرفض الذاتي، وهي إحدى مناهج الديالكتيك"[22]. وأما الأسباب التي تبرر مثل هذا التطابق بين المواقف والرؤى، سواء أكانت في الطبيعة أم في المجتمع، هي الآتي:

1) إنَّ التطابق أمر موجود ومفترض مسبقاً، تماماً كما هو عندما يتّحد عنصران متمايزان ومستقلان مثل النحاس والقصدير، ليشكلا عنصراً آخر هو البرونز.

[22]- **The Essentials of Buddha. P.39.**

2) إنَّ التطابق أمر موجود، من حيث إنَّ واجهة شيء ما وخلفيته يمكن أن يظهرا على أنّهما شيئان مختلفان، ولكنهما في الحقيقة شيء واحد.

3) التطابق موجود، لأنَّ الكينونة بكلتيها واحدة، مثل الماء والموجة، فالماء بكلتيه يظهر ذاته كموجة. مما تقدّم، تستطيع القول إنَّ هذه الحالات الثلاث يمكن تلخيصها كما يأتي:

1) التطابق في الشكل، كاتحاد عنصرين مختلفين لتشكيل وحدة.

2) التطابق في الجوهر، على الرغم من وجود زوايا مختلفة.

3) التطابق في الشكل والجوهر، كما هي الحال في الماء والموجة. وطبعاً، وبكل تأكيد، إنَّ مبدأ التطابق المتبادل، عند البوذية، يختلف عن مفهوم الديالكتيك عند الماركسية، ولكن بكل تأكيد، فإنّهما يشتركان بالآتي:

1) الإقرار بوجود أضداد في الطبيعة والمجتمع والتفكير.

2) الإقرار بظهور التركيب عبر الرفض الذاتي. بمعنى أن مفهوم الرفض الذاتي يؤدي إلى ظهور شيء جديد، سواء في الحياة الإنسانية أو في العالم المادي.

مما تقدّم، نستطيع القول، إنَّ من نفي النفي، ووحدة الأضداد، يمكن أن نجدهما في مبادئ بوذا- السببية والحرية- فلقد أراد بوذا أن يسلّط الضوء على حقيقة، أنَّ الموجودات تنتج فقط بسبب كونها متلازماً بعضها مع بعض. بمعنى، أنّه يريد القول: إنَّ وجودها ليس اعتباطياً، وهي غير متطابقة مع عللها. وبهذا المنهج، فإنّه يقدّم لنا السمة النسبية التي تتميز بها كلّ الموجودات.

إحدى عشر- المادة والوعي:

تعدّالعلاقة بين المادة والوعي، أو الجسد والروح، من القضايا الفلسفية القديمة التي تناولها الكثير من الفلاسفة، منذ عصر ما قبل البوذية إلى يومنا هذا. وفي هذا الصدد، سنحاول الآن، إجراء مقارنة بين أفكار كلّ من المدرستين: البوذية والماركسية، فيما يتصل بعلاقة المادة بالوعي، للكشف عن نقاط التشابه بينهما.

1) **الخلود والروح:**

هناك سؤال شغل تفكير الإنسان منذ القدم ألا وهو:

لماذا يتوقف الإنسان عن التفكير والكلام والحركة بعد الموت؟! طبعاً، هناك الكثير ممن أجاب عن هذا السؤال بالجواب الآتي: لأنَّ الروح قد فارقت الجسد. إذن، نستطيع أن نستنتج من هذه الإجابة، أن الموت هو سبب انفصال الروح عن الجسد. والسؤال الآن: هل آمن كل من بوذا وماركس بوجود الروح وبخلودها؟! يقول بوذا: " **إنَّ فكرة الاعتقاد بوجود الروح، فكرة خرافية، مشابهة تماماً لفكرة الاعتقاد بوجود الله،... لا بل إنَّ الفكرة الأولى أكثر خطورة من الثانية، وذلك لأنّها تخلق طبقة الكهنة، وتمنحها السيطرة على الإنسان، منذ لحظة الولادة حتى الموت**"[23].

انطلاقاً من هذا القول، نستنتج أنَّ بوذا لم يؤمن بوجود الروح الأبدية، ولذلك سُمّيت نظريته بالسنسكريتية بـ"An–atta" وتعني "نظرية عدم وجود الروح"، وقد دعم فكرته هذه بأنّنا لا نستطيع، سواء في الوجود المادي أو في الظواهر الفكرية، أن نجد شيئاً ما يمكن تسميته بـ"ذات متعالية" خارج حدود وعينا. هذا هو المذهب المركزي للبوذية، فلا مكان للروح المطلقة عند البوذية، وهذا يتطابق تماماً مع مذهبها اللحظي: **كلّ شيء في هذا العالم في تغير دائم.**

[23]- **The Buddha and his Dhamma. P261.**

أمّا من جهة الماركسية، فهي كما البوذية، " **لا تؤمن بوجود الروح ولا بخلودها، ولا تؤمن بالروح المطلقةالمحايثة وتطوّرها من مرحلة إلى أخرى** "[24]. ولكن، من جانب آخر، تؤمن كل من البوذية والماركسية بالوعي الإنساني، وهو المسؤول الوحيد عن المعرفة. يقول ماركس: "**يتضمّن الوعي، الأفكار، والأحاسيس، والإرادة، ووجهات النظر...إلخ. من بدون شخص ما يتمنى، لن يكون هناك أفعال... بعيداً عن الإنسان، لن يكون هناك لا إرادة، ولا أحاسيس، ولا رغبات، ولا حتى أي ظهور من ظهورات الوعي**"[25].

لكن، الماركسية تؤمن ــ كما ذكرنا ـ بوجود الطبيعة المادية السابقة على أي وجود للفكر الإنساني. وعليه، فإنه من البديهي أن تقول إنَّ كلّاً من الطبيعة والمادة هما سابقتان الوعي والتفكير، وتعدّ هذه هي الفكرة المحورية عند الماركسية، إذ ترى الماركسية أنَّ الإنسان مزوّد بالوعي، ومن خلاله يستطيع أن يفكّر ويشعر ويرغب، كلّ هذه الأفعال الإنسانية هي معتمدة بشكل كامل على الأعضاء الحسية، ولذلك، فإنَّ الجسد المادي هو الذي يزودنا بشروط الحياة، وهذه الأفعال الإنسانية – التفكير والرغبة والشعور – خاضعة للتغير والتّطوّر، وعند فساد الجسد، ستفسد أعضاؤه، وسيؤدّي ذلك إلى توقّف هذه الأفعال. إذن، كلّ الوظائف والأفعال الذهنية هي منتجات المادة، يقول انجليز: "يعدّ التّفكير من منتجات المادة، وقد وصل، من خلال تطوّره، إلى أعلى درجات الكمال. وأقصد بذلك الدماغ الذي هو عضو التفكير، وعليه، فإنّنا لا نستطيع أن نفصل التفكير عن المادة... إنَّ المادة ليست نتاج العقل، بل العقل هو فقط مجرد منتج من منتجات الطبيعة"[26].

وإذا أخذنا حقيقة وجهة النظر (العلمية – الفيزيولوجية) نجد أنَّ الوعي هو نتاج السيالات العصبية، التي تنبّه القشرة الدماغية، ومعنى ذلك أنَّ جزءاً من الدماغ مسؤول عن وظيفة ما، سواء الإحساس بالألم أو البصر أو السمع...إلخ. وهذا الوعي، هو ذاته، خاضع للتطوّر، في أثناء الصيرورة التاريخية لحياة الإنسان، فهو يبدأ من المرحلة البسيطة وصولاً إلى المرحلة المعقدة.

مما تقدّم، نستطيع القول: إنَّ التّفكير الإنساني مرتبط مع أعلى أشكال المادة وأسماها، ألا وهو الدماغ الإنساني. وعليه، فقد أصبح من الواضح أن الوعي بالنسبة إلى الماركسية، هو منتج المادة، وذو تنظيم عال ومتطوّر.

أمّا البوذية، فهي تؤمن "بالإنسان الواعي"، وتطلق عليه اسم " Rupa – Name" – "**الوجود الواعي** ". وهذا الوجود الواعي، عندها، هو عبارة عن شيء مركّب من مجموعة من العناصر الفيزيائية، ومجموعة من العناصر الذهنية.

العناصر الفيزيائية هي: الماء، والهواء، والتراب، والنار، وهي تشكّل الجسد، أو ما يسمّى بـ Rupa. أمّا العناصر الذهنية فهي:

1) **Vedana**: الإحساس الناتج عن اتّصال الأعضاء الحسّية مع مواضيعها في العالم الخارجي.
2) **Sanna**: الإدراك الحسي.
3) **Sankhara**: حالات العقل[27].

مما تقدّم، يتبين أن الوعي عند البوذية، هو مجرّد نتيجة التركيب بين العناصر المادية الأربعة مع العناصر الذهنية الثلاثة. ولكننا، نجد أنّها تضع شروط الاتّصال، أو التجربة، بين العضو الحسي (مادة)والموضوع المراد معرفته

[24] - what is Dialectical Materialism? P.67.
[25]-Ibib. P68.
[26]- Ibid. p.136.
[27]- The Buddha And His Dhamma, p262.

(مادة) شرطاً لحدوث الإحساس. وهذا، بدوره، سيخضع للإدراك وهذا الأخير، سيخضع لعمليات العقل، و من ثم، فإنَّ المادة علّة الوعي، ولذلك، نجد بوذا، عندما يسأل: ما هو الوعي؟ يجيب قائلاً: " **متى وجد الجسد وجد الوعي مرافقاً له**"[28]. يتضمّن هذا القول فكرة في غاية الأهميّة، ألا وهي أنَّ المادة بذاتها غير واعية، ولكن فقط، الجسد الإنساني (Rupa)، ففي اللحظة التي يظهر فيها الوعي، يصبح الإنسان " Name – Rupa" "**الوجود الواعي**". ولذلك، فإنَّ الوعي هو الشيء الأساسي في حياة الإنسان. لقد ذكرنا أن الوعي، عند الماركسية، الصفة الأكثر تنظيماً من المادة. أمّا عند البوذية، فإنَّ الإنسان مركّب من عنصرين المادة والوعي، فالوعي هو المسيطر على الجسد الإنساني، أمّا المادة فهي المسيطرة على العالم الطبيعي. فالمادة، هي التي تشكّل العالم بما فيه الإنسان. لكن الوعي هو الشيء الأكثر نشاطاً في الإنسان. ولأن التطوّر يتجه من مراحل أدنى إلى مراحل أعلى، فإنَّ الوعي يصبح هو المسيطر والمتحكّم بالشروط بالمادية في المجتمع، ويبدع القيم الأخلاقية للبشرية. هذا يعني، حتى الوعي في تغير وتطوّر دائمين.

هنا، تتجسّد الواقعة الديناميكية عند البوذية، وخاصّة عندما تذهب إلى القول: إنَّ كلّاً من الوجود والوعي المادي حقيقتان جوهريتان متلازمتان ليسا حقيقتين متمايزتين، ومستقلة إحداهما عن الأخرى.

2. **الدّور الفعّال للوعي:**

إذا كانت كلّ من الواقعية الديناميكية و المادية الديالكتيكية ، ترفضان وجود الروح، ووجود أي موجود مقدّس، فهل ترفضان وجود صفات إنسانية مهمة مثل المشاعر، والعواطف، والحب، والصدق، والخير، والجمال؟!

لقد قيل إن الماركسية ترفض الاعتراف بالقيم الروحية. طبعاً هذا ليس صحيحاً، فهناك عدم فهم للماركسية. في الحقيقة، ترفض الماركسية وجود الروح، بوصفها كينونة خاصّة غير مادية، ولكنها لا ترفض العالم الروحي الداخلي للإنسان. فالوعي، والعاطفة، والقيم الروحية، لا يمكن فصلها عن الشروط المادية التي من خلالها يتجسد الوعي. فالوعي يعكس الحياة الواقعية للإنسان، لذلك، فإنَّ المادية الديالكتيكية، تعترف بالطبيعة الثانوية للوعي ولا ترفض دورها الرئيس في حياة الإنسان، يقول ماركس: "**يلعب الوعي دوراً مهماً وفعالاً في تحريك القوّة... عندما تسيطر فكرة ما على الناس، تصبح هي القوّة المادية، هذا يعني، أن البشرية تثار وتستلهم من قبل أفكار قابلة لأن تتحوّل إلى أفعال**"[29].وهذا ما عبّر عنه ماركس بمقولته "الوعي يخلق العالم".

من جهة أخرى، فإنَّ الصفات التميزية في تعاليم بوذا ، تتضمّن اعترافاً بالعقل، بوصفه المركز الإبداعي في الإنسان، يقول بوذا: "**يسيطر العقل على الأشياء ويتحكّم بها، فإنَّ فهم العقل، تصبح به كل الأشياء مفهومة... يعد العقل المدبر والمنظّم لكل الملكات** "[30]. وهكذا، فإنَّ للعقل دوراً فعّالاً عند البوذية، فهو مصدر الخير والشر، إنه "**عربة المبادئ الأخلاقية** "[31]،وله دور في تطور الحياة المادية، بوصفه ناتجاً من الشروط المادية، وانعكاساً لها، فلا يبقى مجرّد جزء سلبي، بل له دور مهم ومؤثر في العالم.

[28]- Ibid. p262.
[29]- what is Dialectical Materialism. P227.
[30]- The Buddha and His Dhamma, p104.
[31]- Ibid, p105.

الخاتمة:

حاولنا في هذا البحث، إظهار التشابهات العديدة بين البوذية والماركسية، فيما يتعلّق بمفهوم المادة ودلالاتها وتجسداتها، آخذين بعين الاعتبار، الاختلاف الزمكاني بينهما وانعكاساته على المنهج المتبع لدى كلّ منهما.لكن، النقطة المهمة من وراء إجراء هذه المقارنة، تكمن في توضيح قضية، هي الآتية:

إنّه ــ وعلى الرغم من المسافة الزمنية الطويلة التي تفصل بين المدرستين ــ تبيّن أنّهما مدرستان معاصرتان، تعاصر إحداهما لأخرى في كثير من الأفكار والقضايا سبق وأشرنا إليها.

فلقد وضعت البوذية والماركسية أهدافاً إنسانية نبيلة ومتعالية أمام النوع الإنساني. فالفرد عندما يصل إلى النيرفانا، سيتصرّف بسلوك معين، يساعد على إحداث تقدّم وتطوّر في السلوك بشكل عام وفي المجتمع ككل. هذا الفرد لن يبقى معزولاً في برجه العاجي، وإنّما سيكون أنموذجاً للبشرية. وهذا ما سعت إليه الماركسية، عندما حاولت أن تجعل من كلّ فرد، فرداً حرّاً من كل أنواع الاستغلال والاستعباد.وسوف تؤدّي هذه الحرية إلى حرية المجتمع ككل. إذن، لقد كان الإنسان عند المدرستين _على الرغم من نزعتهما المادية– القضية المشتركة بينهما.

من جهة أخرى، فإنَّ نظريات البوذية سواء في السببية واللحظية والتغير والتطوّر والنسبية، كلّها تُعدّ ذات دلالات وسمات تتصل بالعصر الحديث،سواء في طبيعتها أو في تطبيقاتها، إذ تؤكّد البوذية الأخلاقيات العامّة، كما تؤكدعدم إيمانها بفكرة الروح الأبدية، وبفكرة الله، وبكل القضايا الميتافيزيقية، ولذلك نستطيع القول:إن البوذية هي من أنزلت الفلسفة من السماء إلى الأرض، عندما حولت اهتمام الفلسفة من القضايا الميتافيزيقية إلى الإنسان والمجتمع، هذه النزعة الإنسانية هي التي تعد من نقاط التشابه القوية بينها وبين الماركسية. فهذه الأخيرة قد أعلنت عن نفسها فلسفة من دون الله، بل أعلنت عن إيمانها بالإنسان وأفعاله، تماماً كما فعلت البوذية. ولذلك، ومما تقدّم، نخلص إلى إيجاز أوجه التشابه و تجلية المشتركات العامة بين المدرستين ــ البوذية و الماركسية ـولعل في ذلك ما يلفت النظر ويستدعي إعادة تأمل الموضوع من جوانبه المختلفة كافة.

المصادر و المراجع:

1. Ambedkar, *The Buddha, And His Dhamma*, Siddhathachabukswar, 1956. P.285
2. Bhikku Bodhi,MajghimNikaya. *The Middle – Length Discourses*, Trans. By:, Boston: Wisdom Publication, 1995.
3. Engels،*Dialectics of Nature*. Trans. By: Clemens Dutt, (New York International Publishers), 1940. P.366
4. George Allen,*A Short History of Buddhism*, and Unwin, London, 1980. p.362
5. Kyabgon ،*The Essence of Buddhism: An Introduction to Its Philosophy and Practice*, Shambhala Dragon Editions, 2001. P.279
6. Lenin, *Materialism and Empirio – Criticism*, trans. By: Abraham Finebrg, Progress Publishers, 1972.
7. Sharma, *A Critical Survey of Indian philosophy*, Motilal Banarsidass Publishers, Delhi,1987.p. 421
8. Sogenyamakami, *Systems of Buddhistics Thought*, university of Calcutta, 1912. P.546
9. The Institute for the Study of the Science of Society, *Marxist Philosophy: A Study Guide for Revolutionaries in the age of electronics*, www. Science society. Org.p.40